اجتهادات جاك بيرك اللغويّة في ترجمته للقرآن الكريم

Jaques Berque's Linguistic Interpretations In His Translation Of The Holy Quran

الحاج موساويّ [1]

تاريخ الاستلام: 08/09/2019 تاريخ القبـــــول: 12/02/2020

ملخّص: يروم هذا المقال استجلاء عمل المستشرق والمستعرب الفرنسيّ جاك بيرك في ترجمته للقرآن الكريم إلى الفرنسية، وذلك من خلال استبانة منهجه العام في تفهّم ألفاظ القرآن الكريم، وطريقته في نقلها إلى الفرنسية. سينحصر التّحليل على آيات الإشارات العلميّة من القرآن ترجمها بيرك وأردف ترجمته بتعليق على نحو يتيسر باتباعه تبيُّن طريقته، مع الاسترشاد بمنهج التّفسير اللغويّ.

كلمات مفتاحية: ترجمة القرآن، جاك بيرك، منهج، اجتهادات لغويّة، تفسير لغويّ.

Abstract: The aim of this article is to explore the work of the French orientalist Jaques Berque in his revised translation of the Quran, in order to deduce the general method he adopted to interpret and to translate quranic words. The analysis will focus on his translation of verses containing scientific indications to which he added commentaries in order to determine precisely his approach. The analysis will be based on linguistic exegesis

Keywords: Translating the Quran. Jaques Berque, linguistic interpretations, scientific indications, linguistic exegesis.

مقدمة: يحاول المقال التّعرف على الخطوط العريضة للمنهج الذيّ ارتسمه جالك بيرك في ترجمته للقرآن الكريم إلى الفرنسية. وبما أنّ ترجمة النّصوص ذات المكانة العاليّة تستلزم جهدا معرفيا وتنظيميا، فإنه يفترض في قامة إستشراقيّة من مستوى بيرك أن يكون لها منهج واضح المعالم بين الأثر في عمله، خصوصا وأنّ البحث يدرس ترجمة مراجعة ومنقحة حظيت بانتقادات وتصويبات جمة. ولقد يسر بيرك على الباحث التّعرف على منهجه من خلال مقدمة ترجمته ومن خلال كذلك الكثير من التّعليقات التّي أردفها في ترجماته، وعلى ذلك سيحاول البحث الاعتماد فقط على أقوال جاك بيرك نفسه وعلى نماذج

منتقاة من ترجمته ذاتها بغيّة وصفها وتحليلها بما يسعف الباحث التّوصل إلى استنباط مفصلات طريقته في التّرجمة.

1.**أهميّة ترجمة جاك بيرك:** لم تحظ ترجمة القرآن الكريم بالإشادة نفسها التّي نالتّها ترجمة، المستشرق والمستعرب الفرنسيّ جاك بيرك، وذلك للمكانة التّي بلغها المستعرب الفرنسيّ بما نشره عن الإسلام من دراسات[2]. نُشرت هذه التّرجمة في نسختها الأولى عام 1990، ثم نشرت منها نسخة أخرى معدلة ومراجعة عام 1995، لأن النّسخة الأولى أثارت موجة من الانتقادات، وكانت شديدة اللهجة، فيها اتهام وتحامل كبير على بيرك[3].

وربما كانت زينب عبدالعزيز أشد النّاقدين لهجة لعمله، إذ أفصحت عن موقفها منه من عنوان كتابها واصفة إياه بذيّ الوجهين، لأنها ترى أنّ بيرك « تعامل مع النّص القرآنيّ بوجه، ويتحدث عنه في أحاديثه السّيارة بوجه آخر»[4]، لعل زينب كانت تنتظر من بيرك أن يتعامل مع القرآن الكريم تعامل المسلم المؤمن به، هذا أبعد ما يُفترض، وليس من المنطق مطالبته به، ففرق بين الإعجاب بالشّيء والاعتقاد به، إذ قد ورد في السّيرة أن كفار قريش كانوا يسترقون السّمع منصتين لتلاوة النّبيّ صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم إعجابا وانبهارا بالكلام الموحى، لكن ذلك لم يحضهم على الإيمان به[5].

ربما كان بيرك، من جهة، يقصد بترجمته شريحة معينة من القرآء، فأتت ترجمته على ذلك النّحو الذيّ لا يتفطن لتفاصيله إلا من كان ذا اطلاع واسع على مضمون القرآن وقادرا على قراءة التّرجمة، وهو ما يكون قد أجج غضب زينب، و من جهة ثانية، ربما كانت أحاديث بيرك عن القرآن خطابات لعامة النّاس فيها المسلم وغير المسلم؛ فتحاشى مصادمة المسلمين بمواقفه. أيا كان الأمر، فما يهمنا في دراستنا هاته هو تبْيان أثر الاجتهادات، اللغويّة خصوصا التّي انبرى لها بيرك، في نوعيّة ترجمته الفرنسيّة للقرآن الكريم.

2.**منهج بيرك في ترجمة القرآن الكريم:** ليس من اليسير الإحاطة بالمنهج الدّيّ يتقيد به أيّ مترجم، إذ التّرجمة ممارسة لا يمكن إخضاعها مسبقا لمنهج محدد، فضلا عن كون المترجم نفسه احترازا يتجنب الإفصاح بكل حيثيات منهجه حتى لا يُقيد عمله، وحتى لا يهب للقارئ وسيلة يسائله عن طريقها؛ مع ذلك فإنّ جاك بيرك قد أشار في مقدمة ترجمته إلى بعض الأمور التّي يمكن عدّها مكونات للمنهج العام الذيّ تبناه في نقل معانيّ القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسيّة.

يقر بيرك مبدئيا بصعوبة ترجمة القرآن الكريم فيقول «لا ينبغيّ لنا أن نتوقع من شخص واحد مجموع المؤهلات التّي تشترطها مسؤوليّة ترجمة القرآن الكريم؛ إذ لا تكفي المعارف الفيلولوجيّة الجادة، ولا الإفادات القيمة للمفسرين، بل ينبغيّ أن يقترن معها شيء من الإلهام الرّوحي، وقراءة ناقدة للتاريخ، وتذوق أدبيّ وقدرة على إثراء اللغة الثانيّة بشيء من ذبذبات الأصل»[6].

يسهب بيرك في تعدادِ المعارف والمؤهلات اللازمة لترجمة القرآن الكريم، وليس في ما ذكره ما يُعترض عليه، لكن هل التّزم هو فعلا بتحقيق هذه الشّروط وعمل على التّزامها في ترجمته؟ فقد يكون تضخيمه لتلك الشّروط مجرد ذريعة يتوسل بها إلى إقناع قارئ ترجمته بقبولها أيا كانت نوعيتها، بل قد يوهم القارئ أنّ المترجم قد بذل جهدا مضاعفا، لا يقوم به إلا العصبة من الرّجال أوليّ الهمم، فيركن القارئ بسذاجة إلى وصف عمل المترجم بالجبار ويضفي عليه بعض المصداقية، فضلا أن يجود القارئ على المترجم بنوع من التّعاطف أو غض عين النّقد عن بعض زلاته. لكن من الواضح أن بيرك يقرّ بامتلاكه النّصيب الوافر من مجموع تلك المعارف، ومجموعها هو الذيّ يخول له أن يتجرّأ فيترجم القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه يهب الدّارس حجة إقراريّة لمساءلته على كل صغيرة وكبيرة في عمله.

وليس في ذلك أدنى تحامل على بيرك، فها هو في الصفحة ذاتها، بعد أن عدّد الصفات اللازم توفرها في القارئ المترجم، يناقض قولته تلك فيؤكد «إن قراءتي، أريد لها، أن تكون مواجهة مباشرة مع هذا الكلام القديم الذيّ لا ينفك يتجدد»[7] ، فهذا يعنيّ أنه لا يقرّ فعليا بضرورة تلك الشّروط، أو ربما لا يفرق بين القارئ العاديّ الذيّ يقرأ القرآن ليتأمل ويتدبر، والقارئ الذيّ يقرأ ليترجم وينقل بأمانة. وربما جمع هو وصف القارئين في قراءته وترجمته؛ لكن لا يستقيم ذلك حيال ترجمة القرآن؛ فالتّرجمة تبليغ، والمبلِّغ ليس له إلا نقل البلاغ، ولا إمكان للتبليغ دون الفهم الذيّ يوصَل إليه من باب التّفسير. أما التّدبر فدرجة زائدة عن التّفسير[8]، والمترجم إذا تدبر دون استئناس بالتّفسير، فقد تصير ترجمته بائنة كلياعن الأصل.

لا يتأخر بيرك كثيرا ليفصح عن موقفه من تفاسير القرآن، فيصفها أنها تتنازعها تيارات عقديّة متصارعة، «وأن تتبع توافقاتها التّي تغطيها كثرة الاختلافات يوشك أن يدفعنا إلى الوقوع في تهويل مقلق للفروقات، أو في انتقائيّة تسطيحية. لتفاديّ هذا المأزق، من الممكن البحث عن طريقة تقويميّة رغبة ونزوعا إلى خيار شخصي»[9] . وهكذا يريح بيرك قارئ ترجمته فلا يضطره إلى مساءلة ترجمته من خلال استشارة التّفاسير المعتمدة، بل ربما يوهمه أن تفاسير القرآن فعلا فيها اختلاف شديد على نحو يجعلها لا تقدم أدنى مساعدة للقارئ أو للمترجم. لكن بيرك لم يحدد نوع الاختلاف بين التّفاسير ولا موضوعه. فإذا كان يقصد اختلاف المفسرين في آيات العقيدة فهذا لا نقاش فيه، وليس هذا موضع بسط ذلك، وإن كان يقصد اختلاف شروحات الآيّة الواحدة، أو حتى اللفظة الواحدة، فهنا ربما كان بيرك يحتاج إلى استشارة من ألّفوا في علوم القرآن ليتبين له أنّ من الاختلاف ما هو اختلاف تضاد ومنه ما هو اختلاف تنوع لا غير.

فاختلاف العبارات الشّارحة بين المفسرين، من حيث الشّكل، أمر ملاحظ فعلا، مما قد يكون مورد غموض أو سبب تشكيك في النّجاعة التّفسيريّة للأقوال المروية، لكن التّأمل في حقيقة ذلك الاختلاف يؤكد أمرا بيّنا وهو كونه اختلافا ظاهريا لا غير. فالطبريّ نفسه كان يرويّ الرّوايات التّفسيريّة التّي يتبادر من ظاهرها الاختلاف، لكنه يقابل بينها، ويبين وجه الاختلاف، وكثيرا ما يُعَقّب عليها بقوله « وهذه الأخبار التّي ذكرنا عمن رَوَيناها عنه فإنها وإن اختلفت فيها ألفاظ قائليها متقاربات المعاني»[10] ، أو «وبنحو

الذيّ قلنا في ذلك قال أهل التّأويل، وإن اختلفت ألفاظهم في البيان عن تأويله، غير أن معنى جميعهم يؤول إلى هذا»[11] . فهذا يدلّ على كون اختلاف عبارات الشّرح لا يعنيّ اختلاف المقصود. أما ابن تيميّة فحصر الاختلاف في التّفسير في نوعين رئيسين: اختلاف تنوع واختلاف تضاد، نافيا أن يكون اختلاف التّضاد والتّعارض بين أقوال الطبقة الأولى من المفسرين، وإنما جعل اختلافهم من قبيل اختلاف التّنوع، إما في العبارة الشّارحة، إما شرحا بذكر المثال أو الجنس أو النّوع، ضاربا مثالا على تنوع تفسيراتهم لألفاظ الصراط في القرآن والسّيف في كلام العرب[12]. وعلى هذا الأساس فالحكم على الأقوال التّفسيريّة بالاتفاق أو بالاختلاف يستلزم نظرا وتأملا وتمحيصا لها، ولا يستقيم الحكم متى تسرّع المطالع لتلك الأقوال. فالاختلاف بين المفسرين وارد، لكن ذلك مرده في الأصل إلى قدرة كل مفسر، ومنهجه المتبع، وإلى السّعة الدّلاليّة للقرآن الكريم. ولا يعنيّ اختلافهم تناقضهم ولا يقتضيّ رد أقوالهم دون مسوّغ، بل الجمع بينها ما لم تختلف هو المعمول به، لأن اعتماد قول وإلغاء أقوال هو في حد ذاته قول جديد.

ومما غاب عن جاك بيرك أن تعدد العبارات الشّارحة للآيّة الواحدة وتنوعها هو أمر إيجابيّ في التّراث التّفسيري، يقول محمد المالكي«إنّ تعدد النّصوص والأقوال والرّوايات في تفسير الآيّة الواحدة، يعطيّ التّفسير نوعا من المرونة، أو إن شئنا الدّقة، يجعله قابلا لعدة قراءات لا قراءة واحدة مسلم بها على وجه مطلق »[13] . تنبهنا هذه الأقوال أن التّفسير بالمرويات، لا سيّما إن كان منقولا عن طبقة الصحابة والتّابعين، أو ما يعرف بمفسريّ عصر الاحتجاج، لا يصبغ التّفسير بالجمود، ولا يطبعه بالاختلاف كما يزعم بيرك، بقدر ما يثريه باستنباطات أهل الاختصاص، ويمده بأمداد من شروحات لآيّة أو للفظة تتنوع بين ذكر لمثال أو ذكر لنوع أو ما يتضمنه القول بإعمال أحد أنواع الدّلالة.

كان لبيرك أن يبرر نزوعه إلى إعمال خياراته حيال محاولة فهم القرآن بغير هذه الذرائع، فهو لم يصف التّفاسير بوصفها الحقيقي، بل ربما عمم اختلافا في آيات الصفات على كل تفسير، فلكونه مترجما لا يعتقد ما يدعو إليه القرآن، كان يكفيه أن يبرر عدم اعتماده على التّفاسير بحجج أخرى يجد لها في دراسات التّرجمة مسوغات كثيرة تسندها.

فضلا عن ذلك، فإنّ جاك بيرك لا يكتفي بنقد التّفاسير وعدم الاستئناس بها في التّرجمة، بل يبين موقفه أكثر حين يصرح أنه اعتمد على ريجيس بلاشير في الجوانب النّحوية[14] ، وهنا لنا أن نتأمل كيف يكون بلاشير مرجعا في علم نحو العربية، والكل يعلم أن العربيّة أوفر اللغات نصيبا من الدّراسات النّحويّة التّي نذرها مؤلفوها خدمة لنصوص الوحي.

ثم يفصح بيرك عن قيمة المجهود الذيّ بذله لتفهّم مدلولات القرآن، إذ عبر عن جميل امتنانه لترجمة سيّ حمزة بوبكر التّي وصفها بأنها ترجمة ثريّة بالمعلومات عن الإسلام لكن على الطريقة الغربية[15]. فهل التّزم بيرك فعلا بدراسة القرآن وفق الطريقة التّي عدّد شروطها آنفا؟ وهل كانت ترجمته فعلا مواجهة مع النّص كما زعم؟

ليس عيبا أن يستند باحث على جهود باحثين آخرين، لكن أن يحصر مستشرق في مقام جاك بيرك، وهو الذيّ نال عضويّة مجمع اللغة العربيّة في القاهرة، أهم مصدرين يعتمد عليهما لفهم القرآن في مؤلفين بالفرنسية، فإنّ هذا المسعى لا يتناسب مع المنهج العلميّ الذيّ يحث على استقاء المعلومات بل واستقصائها من مصادرها الأولى.

ذكر بيرك في قائمة مراجعه مجموعة من التّفاسير التّي استعان بها، مصنفا إياها إلى مجموعات ثلاث، فالأولى كان يستعين بها دائما في كل القرآن، وخص منها تفسير القاسمي، والطاهر بن عاشور، والطبري، والزمخشري. أما المجموعة الثانيّة فاستعان بها في جزء كبير من السّور وهيّ تفسير الألوسيّ وتفسير الرّازي، وتفاسير أخرى استعان بها في مواضع معينة فقط[16]. مع ذلك سنرى من خلال أمثلة من ترجمته إن كان قد استعان بأقوال أولئك المفسرين أو لجأ إلى اختيارات كما ذكر في مقدمة ترجمته.

3.**مراجعة التّرجمة والاستفادة من التّعقيبات:** ليست ترجمة القرآن بالعمل الهين بتاتا، بل نتفق مع بيرك حين يعدها مشروعا يستلزم تحقيقه تضافر جهود وإسهامات من متخصصين في مجالات. لكن لما يكون العمل قد أُخضع لمراجعة أكثر من مرة[17]، فإنه يفترض أن يخلو العمل من الهفوات والهنات ما أمكن، بل لما تكون التّرجمة نُشرت مرة ثانيّة بعد تعرضها في المرة الأولى لحملة انتقادات، فإنّه يُفترض أن يجريّ بيرك عليها تعديلات تخفف من وطأة نقمة النّاقدين، بل قد فعل كما صرّح بذلك شاكرا بعضُ العلماء والباحثين الذين تجشموا قراءة ترجمته ومراجعتها وأبدوا له ملاحظات وصفها بالقيمة، لكنه أعلن أنه لم يلتزم بها كلها، فضلا عن ذلك فقد وصف ترجمته أنها دقيقة وأخذت منه جهدا موسوعيا [18].

ومما يؤكد أن لبيرك اجتهادات فرديّة في ترجمته للقرآن الكريم، فضلا عما صرّح به في مقدمته، هو ما وصف به وائل غاليّ ترجمة بيرك إذ قال «تكمن قيمة التّرجمة الأعجميّة التّي قدمها [...] أنها تمزج بين الفقه الإسلاميّ والفكر الفلسفي واللغويّ المعاصر»[19] ، فلئن صدق هذا الوصف على عمل بيرك، فمن المفترض أن تكون نتائج اجتهاداته على نحو مفارق لما تقول به التّفاسير التّي اعتمدها بيرك.

أما من جانب اللغة الفرنسيّة فينتقيّ بيرك المعانيّ التّي يقرّها قاموس روبير[20] ، وهكذا يتيسر على الدّارس ضبط المدلولات التّي يريدها بيرك من استعماله للفظ دون آخر باعتماد القاموس الفرنسيّ ذاته.

4. **منهج الدّراسة:** وعلى هذا الأساس سنعرض لدراسة ترجمات بيرك لبعض من آيات الإشارات العلمية. ونقصد بالإشارات العلميّة الآيات التّي فيها وصف لخلق من المخلوقات، وستكون دراستها بالاعتماد على منهج التّفسير اللغوي، وهو منهج يقوم على « بيان معانيّ القرآن بما ورد في لغة العرب»[21]. فهذا

التّعريف يحصر مصادر التّفسير في لغة العرب ومعهودهم في استعمال الألفاظ والأساليب والمدلولات التّي أسندوها لها، ويُخرِج هذا التّعريف كل مصادر التّفسير الأخرى وطرقه، سواء أكانت من طريق الرّواية، كالأحاديث وأسباب النّزول، أم كانت من طريق الدّراية، كالتّدبر والاستنباط والتّأويل وما كان قائما بالأساس على إعمال العقل مفردا. يبين الطيار المقصود بما ورد في لغة العرب فيقول «ألفاظها وأساليبها التّي نزل بها القرآن»[22]. لا مراء أنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب مبنى ومعنى، فلذلك فهمه لا يتم في الغالب إلا بإعمال طريقة العرب في فهم الكلام، ولقد ذهب إلى تأكيد ذلك كثير من العلماء. يقول الشّاطبيّ « القرآن عربي[...] بمعنى أنه في ألفاظه ومعانيه وأساليبه عربى، بحيث إذا حُقق هذا التّحقيق سُلك به فى الاستنباط منه والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها ومنازعها فى أنواع مخاطباتها خاصة »[23] ، ولقد سبقه إلى هذا التّقرير ابن جرير الطبريّ حين عدّد أنواع التّفسير فجعل منها «ما كان علمه عند أهل اللسان الذيّ نزل به القرآن، وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه، لا يوصل إلى ذلك إلا من قبلهم»[24] . وهذا القول عينه يُرفع إلى ترجمان القرآن عبدالله ابن عباس بلفظ «ووجه تعرفه العرب من كلامها»[25]، علق الزركشيّ على قول ابن عباس فقال «هذا تقسيم صحيح، فأما الذيّ تعرفه العرب فهو الذيّ يرجع فيه إلى لسانهم، وذلك اللغة والإعراب، فأما اللغة فعلى المفسِّر معرفة معانيها ومسميات أسمائها »[26] .

لا مراء أن العرب الذين شهدوا التّنزيل كانوا أهل سليقة لغويّة لا يدانيهم فيها من بعدهم، والحال نفسها كان عليها جل أهل القرون الثلاثة الأولى، من الصحابة وتابعيهم، لكن العلم بالعربيّة ليس مقصورا عليهم إذا أُتيّ من طريقه، يقول الطاهر بن عاشور «أما العربيّة فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة ، بالسّجيّة والسّليقة ، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم ، أم حصلت بالتّلقيّ والتّعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقيّة العرب ومارسوهم ، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها »[27] .

ومما يزيد تيسير الأخذ باللغة منهجا للتفسير هو نتاج اجتهادات مؤلفي المعاجم العربيّة خصوصا، فقد استوعبوا مجمل ألفاظ العربية، ودونوها على نحو مبوب ييسر البحث عن كل لفظ ومدلولاته التّي يعرفها العرب واستعملوها في كلامهم، فيكون اعتمادها في التّفسير منضبطا بما رواه أهل اللغة مؤلفو المعاجم إلى حد ما. وما دامت اللغة مروية، فإنه يشترط على الآخذ بها في التّفسير الإحاطة بها أو إعمال مروياتها التّي تناسب اللفظ القرآنيّ موضوع التّفسير، وألا يعمد المفسر إلى انتقاء ما يراه مؤيدا لفكرته أو متماشيا مع خياراته الأيديولوجية، كيّ لا يظلم دلالة اللفظ القرآني، فيزيح عنه ما يُعلم بالضرورة من اللغة، ويحمله ما لا تتقبله اللغة.

5.نماذج من اجتهادات جاك بيرك:

5 . 1 بديع وفاطر وخالق: هذه ثلاثة من أسماء الله تعالى متقاربة المعنى، لكن بالتّقصيّ عن مدلولاتها نستشف فروقا بينها، وردت في آيات منها : ﴿تهثم□جم□حم□خم□□□سم□﴾ [البقرة : 117]. يقول الطبريّ

مفسرا معنى بديع «بَدِيعُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ مبدعها . وإنما هو «مُفْعل» صرّف إلى «فَعِيل » ، كما صرّف المؤلم إلى أليم ، والمسمع إلى سميع . ومعنى المبدع : المنشىء والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد»[28]، وقد وردت هذه الآيّة بعد قوله تعالى ُ□ين□□□□□□□□بجبحبخ بمبهتجتحتختمّ [البقرة : 116]. وكأن السّياق يريد أن يقول أن الذيّ خلق السّماوات والأرض على غير مثال سابق ليس بعاجز أن يخلق إنسانا، والمقصود عيسى عليه السّلام، وقد خلق الله مثله كثيرا قبله. أيّ أن المبدع من لا شيء لا يُعجزه إيجاد مخلوق جديد من مخلوق سابق. وهو ما نبه إليه الطبريّ في تفسيره[29] . وما يؤكد هذا المعنى هو أن اسم بديع ورد مرتين في القرآن الكريم، في الآيّة هاته وفي الآيّة 101 من سورة الأنعام، في سياق الرّد على نسبة الولد إلى الله تعالى.

لكن بيرك أتى باجتهاد من عنده فاختار لترجمة بديع **Créateur intégral**، ولم يُشر في تعليقه على ترجمته إلى أيّ من التّفاسير التّي اعتمدها، بل راح يؤكد مناسبة ترجمته للآيّة مشيرا إلى اختلاف مدلول الجذر بدع عن الجذرين خلق وفطر، فذكر أن فطر تعنيّ خلق من لاشيء، وأن خلق يفيد خلق من عناصر موجودة[30] . ولا نجده يشرح معنى بدع، إذ هو الوارد في الآية.

والكلمة نفسها اختار لها بيرك مقابلا مغايرا في سورة الأنعام، إذ ترجم بديع إلى **créateur absolu**[31]، أيّ الخالق المطلق، وهيّ محاولة تكاد تكون يائسة هيّ الأخرى، لكنها تؤكد لنا مستوى الاجتهاد الذيّ بذله بيرك لتقصيّ مدلولات هاته اللفظة القرآنية، بالتّنقيب عن مدلولاتها في التّفاسير أو في معاجم اللغة، ومدى توظيفه لمقابلات فرنسيّة لألفاظ مقاربة.

لم يعلق بيرك على اختياره للفظة **absolu** في هذه الموضع، على كل حال، فإنّ صنيعه هذا قد يعنيّ عدم رضاه بترجمته الأولى. بيد إننا حين نتمعن ترجمته للفظ "فاطر" الذيّ لم يَرِد في القرآن إلا مقرونا بالسّماوات والأرض، يتبيّن لنا أنّ بيرك قد اضطرب تفكيره، ولم يُسعفه تخمينه في اختيار ألفاظ فرنسيّة تشير إلى الفرق الذيّ افترضه في تعليقه السّابق. بل إنّه في تعليق له على ترجمة كلمة فاطر في سورة فاطر نجده ينكص على عقبيه، فيقول مناقضا قوله الأول «"الخالق الكامل" أو "خالق من لا شيء"، بمبالغة غير محدودة، تبدوان ترجمتان تضاهيان ترجمتيّ لكلمة "فِطرة". إذ المعنى الأوليّ للجذر فطر هو فصل، فالمقطع الصوتيّ 'ف' يشير إلى هذا المعنى في كثير من الكلمات يكون في مستهلها. أما خلق فيشير إلى "التّحويل" وأبدع يعنيّ الفعل السّابق لكل فعل، أو "التّأسيس " إن شئنا. أما الجملة التّي افتتحت بها الآيّة فيمكن فهمها بطرق مختلفة لتتابع الأسماء فيها. إنها ضرورية، رغم غموضها، بالنّظر إلى الوصف القرآنيّ للملائكة»[32]. ولنا أن نوازن بين المعانيّ التّي أسندها لكل جذر في التّعليقين. ربما كان تعليقه الثانيّ هذا أقرب للدقة من الأول لكنه حين يترجم كلمة فاطر، في مواضعها السّتة من القرآن الكريم[33]، نلمح أنّه لا يثبت على خيار واحد، ولا تُبرز عباراته الفرنسيّة الفرق الذيّ زعمه بين فطر وبدع:

•Créateur des cieux et de la terre à partir de rien[34].

•En tant qu'il a créé de rien les cieux et la terre[35].

•Créateur intégral[36].

إذ قد اقترح مقابلين لكلمة فاطر، واستعمل **Créateur intégral** ثلاث مرات، وهو المقابل ذاته الذيّ استعمله مرة واحدة لكلمة بديع. فظهر أن بيرك في تعليقاته وتحليلاته يزعم أشياء، لكنه حين يترجم يفعل أمرا مغايرا. وإن كان يُقر بتحليله للفظتين دون أن يُصرح باستعانته بالتّفاسير، وربما بمعاجم اللغة، إلاّ أن مقابلاته الفرنسيّة تؤكد أنّه طالع التّفاسير وتأثر فعلا بما تقوله عن معنى بديع وفاطر.

فحين نعود إلى معاجم العربية، لا نجدها تفرق بين فطر وبدع. فالزّبيديّ ذكر أن بدع أو أبدع بمعنى «بدَأَ الخَلْقَ على ما أَرادَ على غَيْرِ مِثَالٍ تَقَدَّمَهُ»[37] وهو ما ذهب إليه الطبري. ويقول في فطر « وفَطَر الأَمْرَ: ابْتَدَأَه وأَنْشَأَه»[38]. وحتى السّياق القرآنيّ لا يفرق بين الكلمتين، لكونهما وردتا في كل المواضع مضافتين إلى السّماوات والأرض. فسواء فرقت بينها المعاجم أم لم تفرق فالاستعمال القرآنيّ أولى بالمراعاة. ولا يعنيّ ذلك أن الفعل خلق ومشتقاته لم تقترن بالسّماوات والأرض.

أما المقابل الفرنسيّ في ترجمة بيرك ، وإن اجتهد في سبيل تبيان الفروق بين الألفاظ الثلاثة، فإنه لا يضيف أيّ قيد دلاليّ يُظهر الفرق بين الجذور الثلاثة التّي ذكرها بيرك؛ لأن كلمة **intégral** لا تعنيّ سوى الكامل، ولا علاقة لها بمعانيّ ابتداع شيء على غير مثال.

5 . 2 الذاريات: وفي سورة الذاريات نلمح لدى بيرك اجتهادات أكثر، برزت خصوصا في مطلع السّورة في قوله تعالى :ُ□□□ً [الذاريات : 1]ُ□□□ً [الذاريات : 2]. لم يختلف المفسرون في تعيين الموصوف بالذاريات، بل أجمعوا كلهم على أنها الرّياح، قال الزمخشريّ هيّ "الرّياح لأنها تذرو التّراب وغيره "[39]. بيّن النّحاس معنى الذرو فقال " والرّياح الذاريات يقال ذرت الرّيح الشّيء إذا فرقته فهيّ ذارية"[40]، أما الحاملات وقرا، فقال الطبريّ هيّ " السّحاب التّي تحمل وِقرها من الماء"[41]، أما ابن عطيّة فعممها على كل ما يحمل ثقلا[42]. لكن لابن القيم مزيد توضيح إذ استطرد مفصلا معنى الذَّاريات فقال هيّ "الرّياح؛ تَذْرُو المطرَ، وتَذْرُو التّرابَ، وتَذْرُو النّباتَ إذا تَهَشَّم، كما قال تعالى:ُ□□□ً [الكهف:45]؛ أي: تفرِّقُه وتَنْشُرُه. ثُمَّ أقسَمَ بما فوقها وهي: السّحَاب الحاملات وِقْرًا، أي: ثِقْلاً من الماء، وهيّ رَوَايَا الأرض، يسوقها الله -سبحانه-على مُتُون الرّياح" [43] فابن القيم فسر الذرو بالنّشر، وهو مذكور في القرآن منسوبا إلى الرّياح، والحاملات جعلها الرّياح التّي تحمل السّحاب أو تُقِله كما قال القرآن "حتى إذا أقلت سحابا ثقالا". أما ترجمة بيرك فكانت هكذا:

(Vanner): vanner vannage, emporter une charge[44].

إذ بيّن فيه إدراكه لوزن الكلمة واعتماده على المعنى الاشتقاقي، مُقرا بما تقوله التّفاسير، وموضحا ميله إلى عدم اعتمادها: «بيد أنني أميل إلى اعتبارها ترميزا يوظف صورا قصيرة بليغة تجسد حركات الطبيعة في عنفها المنضبط»[45]. لا ينفك جاك بيرك يثير استغراب القارئ بالمعنى الذيّ صاغه هذه المرة للآيّة الأولى من سورة الذاريات، فقوله **vanner vannage** يحتمل دلالات كثيرة، لكنها للأسف لا تتطابق مع مدلول الآية، بل ولا تناسب الوحيّ الكريم. إذ الفعل **vanner** له ثلاثة معان وفق قاموس روبير[46]، فهو يعني: غربل، أو زود بحنفية، أو سخِر (استعمال سوقي). ولكنه يسر لنا تحديد المعنى الذيّ يريده باستعماله المصدر **vannage**، وهو الاسم المشتق للفعل نفسه بالمعنى الأول والثاني. إلا أن بيرك لم يُسلمنا للقواميس، بل بين في تعليق له على التّرجمة أنه يرد أقوال المفسرين، وأكد أنه يعتمد على المعنى الاشتقاقيّ لكلمة الذاريات، وأنه يميل إلى التّصوير التّرنميّ لحركات الطبيعة في عنفها المضبوط. لكن ليته بين المعنى الاشتقاقيّ الذيّ اعتمده فاختار بسببه هذه الصياغة الفرنسيّة التّي لا قرابة بينها وبين الآية؛ إذ أن أحسن الاحتمالات تقودنا إلى اعتبار المعنى الأول للفعل **vanner**، لكن كيف تكون الرّيح تغربل، والغربلة فيها انتقاء، وهيّ صورة من صور العنف في الطبيعة كما يزعم المستشرق المستعرب؟

3.5 الحبك:

ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ [الذاريات : 7]

تعددت المعانيّ التّي قال بها المفسرون لتبيان مدلول السّماء والمقصود بلفظة الحبك، فمن قائل بأن السّماء تدل على الغيم فيصير عندهم مدلول الحبك الطرق أو المسارات التّي تتبعها السّحب، ومن قائل بأنها السّماء السّابعة فقط، أو مجموع السّماوات السّبع، ويصير معنى الحبك، الطرق أو الأفلاك، أو النّجوم التّي تزين السّماء الدّنيا، أو حسن خلق السّماوات وشدة إحكام بنائها وإتقانه[47].

لكن بيرك اختار مقابلا يؤديّ معنى غير مناسب للسياق، ولا يتلاءم مع مجموع أوصاف السّماء في القرآن الكريم، فترجم الآيّة إلى **le ciel ondoyant** أيّ "السّماء المتموجة"، فربما فهم من الحبك، حبك الرّيح، أيّ تحريكها للماء، أو للزرع، أو أثر تحريكها للرمل، فينتج عنه تموج يُبقيّ الماء أو الزرع أو الرّمل متموجا[48]. وقال معلقا «الحبك: كلمة أهملها اللسان [لا يحدد بيرك المعنى، لأن لسان العرب أورد شرحا مسهبا للفظة حبك]، يشير عادة إلى البناء المحكم، مثل إتقان صنع نسيج. لكنني أعتمد على شرح جانبيّ أورده الطبريّ (ج 26، ص 118)، وعلى استعمال بارع لزهير يصف ماء أصابته شمس وتحركه ريح»[49]. لم نعثر في أيّ من طبعات تفسير الطبريّ المحققة(طبعة شاكر، او طبعة التّركيّ أو طبعة دار الفكر) على هذا الشّرح الذيّ يقصده بيرك. أما البيت الذيّ يقصده فهو لزهير بن أبيّ سلمى يقول فيه:

مُكَلّـــلِ بأصـــــول النّبْــــت تَنْسُــــجُهُ ريـــحٌ خَريـــقٌ لِضـــاحيّ مائـــه حُبُـــكُ[50]

قال شارح الدّيوان أيّ تمر به ريح شديدة على ماء تَبرَّز للشمس وظَهر، والحبك جمع حبيك أيّ طريقة[51]. لا غبار على المعنى الذيّ أراده زهير في بيته، لكنه ليس هو المعنى المقصود في الآية، فاللفظة في لغة العرب، تبعا لاستعمالاتها الفعليّة قد تؤديّ معانيّ عديدة، بيد أنّ ورودها في القرآن لا يعنيّ أنها قد تؤديّ مجموع المعانيّ العربيّة تلك، ولقد سبق ذكر شروحات المفسرين، فقد مال أكثرهم إلى القول بمعنى إحكام البناء وزينته، وهو المعنى الذيّ يتلاءم مع مجموع أوصاف السّماء في القرآن الكريم.

أما المعنى الذيّ أتى به بيرك فيبدو غير مناسب تماما، إذ الصورة التّي أتى بها هيّ الأخرى توحيّ بكون بناء السّماء غير محكم. وربما الخلل المنهجيّ الذيّ أدى به إلى هكذا ترجمة هو ميله إلى مطلق معانيّ الحبك في اللغة العربية، دون ربط استعماله في هذه الآيّة مع السّياقات الأخرى حيث ورد وصف السّماء. فالمعنى اللغويّ الذيّ أتى به صحيح في ذاته لكنه غير مراد في الآية[52].

5 . 3. إنشاء السّحب: يقول تعالى واصفا كيف تتكون السّحبُ ﴿ [النّور : 43]

فسر الطبريّ الآيّة معتمدا على اللغة وبعض ما رُويّ فقال :« أَلَمْ تَرَ يا محمد أنّ اللّهَ يُزْجِيّ يعنيّ يسوق سَحَابا حيث يريد . ثُمّ يُؤَلّفُ بَيْنَهُ : يقول : ثم يؤلف بين السّحاب . وأضاف «بين » إلى السّحاب، ولم يذكر معه غيره، و«بين » لا تكون مضافة إلا إلى جماعة أو اثنين، لأن السّحاب في معنى جمع، [...] . وتأليفُ الله السّحاب: جمعه بين متفرّقها . وقوله: ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكاما يقول : ثم يجعل السّحاب الذيّ يزجيه ويؤلف بعضه إلى بعض رُكاما يعنيّ : متراكما بعضه على بعض»[53] ، وذكر أن إزجاء السّحاب والتّأليف بينه وتراكمه تُحدثه الرّياح. وهذه الآيّة وإن كانت تنسب الأفعال إلى الخالق عز وجل، فإنها في الحين نفسه تصف كيفيّة تكون السّحاب في جو السّماء؛ لكن المقطع الذيّ يُفترض أن يُفرز صعوبات جمة في ترجمته فهو قوله تعالى ﴿ ﴾، ولعل الصعوبة تكمن في توظيف حرف الجر نفسه ثلاث مرات متتاليّة متقاربة وبمعان مختلفة، فقد قال ابن عطيّة موضحا مدلول المقطع محددا وظائف الحرف من: «. و{ من } في قوله { من السّماء } لابتداء الغايّة ، وفي قوله { من الجبال } هيّ للتبعيض ، وفي قوله { من برد } هيّ لبيان الجنس»[54]. ولكن حين نتذكر أنّ من معانيّ السّماء السّحاب أيضا، تيسر لنا تبين معنى السّماء في قوله ﴿ ﴾ ، فيصير المعنى أكثر وضوحا، ويبعد على المفسر والمترجم أيضا اللبس والغموض في فهم معنى الآيّة وتغدو ترجمته يسيرة الفهم، فقد جاء في التّفسير الميسر مراعاة هذا المدلول ففسر المقطع «وينزل من السّحاب الذيّ يشبه الجبال في عظمته بَرَدًا»[55].

أما أصحاب المعاجم فقد شرحوا مدلول كل لفظ من ألفاظ الآيّة بما يكاد يتطابق مع ما نقله المفسرون، فزجى في مقاييس اللغة شرحت بمعنى «رميّ بالشّيء وتسييره من غير حبس، يقال أزجت البقرة ولدها إذا ساقته، والرّيح تزجيّ السّحاب تسوقه سوقا رفيقا»[56]. أما التّأليف فهو الجمع والوصل بين أشياء

متفرقة[57]، أفاده صاحب التّهذيب. والرّكام هو السّحاب المجتمع بعضه فوق بعض [58]، والودق كما شرحه الخليل هو«المطر كله شديده وهينه»[59]، وأضاف أن «الخلل منفرج مابين كل شيئين وخلل السّحاب ثقبه وهيّ مخارج مصب القطر والجمع الخلال»[60].

نقل بيرك هذه المعانيّ بهذه الصياغة:

▪***N'as-tu pas vu dieu rassembler un nuage*, puis l'agglomérer, puis le concentrer; tu vois alors sortir une bruine de ses béances; et dieu fait descendre du ciel, comme des montagnes, qu'il y eût là-haut, des chutes de grêle[61].**

فيبدو أنه استعجل معنى التّجميع، وحذف معنى زجى، وإن كانت تزجيّة السّحاب تستلزم تجميعه، لكنه ما أفلح إلا قليلا لكونه نقل السّحاب إلى المفرد، فلو صاغه جمعا لأتت ترجمته أدق. وإذا دققنا الملاحظة في ترجمته أكثر لمحنا أنها ترجمة فيها بعض التّلاعب بالمعنى، إذ تستلزم صياغته له بهذا الشّكل ***N'as-tu pas vu dieu rassembler un nuage***، أن يكون المرئيّ هو الله عز وجل لا ظاهرة تكوين السّحاب، فهل كان بيرك يتقصد ذلك، ليوهم القراء بتناقض القرآن الذيّ ينفي إمكانيّة رؤيّة الله في الدّنيا؟.

أما المقطع الثانيّ فقد صاغه بيرك بما يعني، حين نعيد ترجمته إلى العربية:

-ينزل من السّماء، مثل الجبال، هيّ هناك في العلو، كتلا من البرد.

فضاع من ترجمته معانيّ الحرف "من" الذيّ ورد ثلاث مرات في المقطع بوظائف متغايرة، وجاءت ترجمته بذلك تقريبا بلا معنى، وليس من تبرير لذلك إلا اعتماد بيرك على تحليله دون الاستئناس بالتّفاسير على كثرتها وتنوعها.

5.5 المعصرات:

ُتيتي□□□□ً [النّبأ : 14]

تتقاطع هذه الآيّة مع آيتيّ النّور، لكونها تتكلم عن إنزال الماء من السّحب، لكن بألفاظ تضيف معان أخرى. ذكر الطبريّ أقوالا في تفسير المعصرات، فذكر أن البعض يقول هيّ الرّياح التّي تعصر في هبوبها، لورودها في بعض القراءات : «وَأَنْزَلْنا بالمُعْصِرَاتِ »، أيّ الرّياح، وقال آخرون إنما هيّ السّحاب التّي تتحلب بالمطر ولمّا تمطر ، كالمرأة المعصر التّي قد دنا أوان حيضها ولم تحض. ورجح الطبريّ تفسير المعصرات بالسّحاب التّي تنشأ بتأثير الرّياح[62]. وهو المعنى الذيّ قال به صاحب معجم العين«أعصرت الرّياح فهيّ معصرات أيّ مثيرات للسحاب"[63]. أما مَاءً ثَجّاجا ففسرها الطبريّ

وأصحاب المعاجم، «بالماء المنصب يتبع بعضه بعضا»[64]. يمثل لفظ المعصرات في هذه الآيّة تلك الألفاظ التّي تؤديّ دلالات متكاملة، إذ ليس في تفسيرها بالرّياح المثيرة للسحب تارة، وبالسّحاب الموشك أن يمطر أحيانا نوع تناقض، إذ التّفسير الأول مستفاد من آيات آخر تصف الرّيح بإثارة السّحاب، فهو تبيان لسبب تكونها، أما التّفسير الثانيّ فهو بيان لنتيجة فعل الرّياح في تكوين السّحب وركمها حتى ينزل منها الماء.

نقل بيرك الآيّة هكذا:

▪Des pressions (avons) fait descendre l'eau à verse[65].

أما محاولة جاك بيرك، فتثير استغراب القارئ، فاختياره لفظ pressions مقابلا للمعصرات لا يؤديّ المعنى المراد، بل لا يؤديّ أيا من المعانيّ المناسبة لسياق الآية. يقول بيرك في تعليق له على هذا الاختيار أن «عَصر تعنيّ ضغط، ويتساءل إن كان هذا يشير إلى الظاهرة المناخيّة للضغط الجوي»[66]، لكن لنا أن نتساءل نحن أيضا: هل تناسى جاك بيرك أن الضغط الجوي، مرتفعا كان أو منخفضا، لا يستلزم بالضرورة نزول المطر؟ ولو افترضنا أن المعصرات تترجم مثلما ارتأى المستشرق الفرنسي، فإن الصياغة تتغير وتصير على شاكلة بفعل الضغط، لا بالشّكل الذيّ اعتمده هو.

6.5 عرفا:

ُ□□□□□□□□□ً [المرسلات :1-3]

هذه آيات أخرى ذكرت فيها الرّياح بأوصاف أخرى. ذكر الطبريّ التّفسيرات المختلفة لهذه الآيات، وقال أنه لا مانع من القول بواحد منها، ولا مانع من القول بجميعها، فالمرسلات هيّ ما يُرسل من الرّياح أو من الملائكة، أما عرفا فمعناها التّتابع. أما "العاصفات عصفا" فخصها بالرّياح، وهيّ الشّديدات الهبوب السّريعات الممرّ. أما النّاشرات نشرا، فلا مخصص لها يُمَكننا من الاقتصار على وجه دون وجه ، فالرّيح تنشر السّحاب ، والمطر ينشر الأرض ، والملائكة تنشر الكتب[67] . صيّرها بيرك بفرنسيته هكذا:

▪(l'envoi): par l'envoi plus serré que crinière, et son ouragan déchaîné, par le déploiement déployé[68].

فقد اختار l'envoi مقابلا للمرسلات، فربما هذه المرة لم ينتبه للوزن كما فعل في سورة الذاريات، فالكلمة هاته على وزن المفعول، أما مقابلها الفرنسيّ فاسم مصدر. فبعد أن كان القَسم في العربيّة بالمرسلات، صار في ترجمة بيرك بالإرسال، ثم يزيدنا بيرك إنبهارا عندما يجعل هذا الإرسال plus serré que crinière أشد انقباضا أو كثافة أو حتى إيجازا من عرف الأسد أو الحصان، وهو ذلك الشّعر الذيّ يلف رقبة الحيوان. فكيف استطاع بيرك أن يتخيل في معنى المرسلات

عرفا هذا الإرسال الذيّ شبهه بعرف الحيوان؟ ثم يضيف في الآيّة الثانيّة أن هذا الإرسال "son ouragan déchaîné" له إعصاره العاصف. كان من المنطقيّ أن يفهم بيرك من عصفا ما فهمه من عرفا، فإذا جعل من عرفا عرف الحيوان، فما الذيّ منعه من أن يجعل العصف هو عصف الحب كما في سورة الفيل؟ وإننا لنتساءل عن التّفاسير التّي اعتمدها بيرك ليقول بهذا المعنى في ترجمته، لكن تعليقا له على هذه الآية[69] يجعلنا نستبعد وثوقه بالتّفسير، بل يجعلنا نتيقن مرة أخرى أنّه يستقل بفهمه هو في تبين معانيّ القرآن الكريم.

5 . 7 **نسلخ:** تشير آيات إلى الهيئة التّي يكون عليها الليل والنّهار ، والتّي هيّ بدورها تشير ضمنيا إلى هيئة الأرض والسّماوات كقوله تعاليّ في سورة يس ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾[يس: 37]، وسلخ بمعنى أخرج كما بينه أهل اللغة[70]، قال الطبريّ هيّ بمعنى « ننزع عنه النّهار . ومعنى {منه} في هذا الموضع : عنه ، كأنه قيل : نسلَخ عنه النّهار ، فنأتيّ بالظلمة ونذهب بالنّهار»[71] ؛ فعلى هذا يكون الليل محيطا بالنّهار، والنّهار كأنه طارئ عارض، ولعل في الآيّة إشارة إلى أن الكون مظلم يلفه ليل أو ظلام دامس، وهذا المعنى أكدته آيات أخرى وصفت الليل باللباس، في قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان : 47]، بين البغويّ معنى لباسا فقال: «يريد أن ظلمته تغشى كل شيء ، كاللباس الذيّ يشتمل على لابسه»[72]، فلئن خاطبت هذه الآيّة البشر، فآيّة النّبأ لم تخصص مخاطَبا في قوله ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النّبأ : 10]، والمعنى نفسه.

في ترجمته للآيّة لم يوضح بيرك الأمر الذيّ ألجأه إلى لفظ **dépiauter**[73] الذيّ تنزله المعاجم الفرنسية[74] إلى مستوى اللغة السّوقية، فصياغته لعبارته الفرنسيّة تنأى عن الوصف القرآني. فقوله: **"La nuit dont nous dépiautons le jour"** لا يعنيّ أن الليل يحيط بالنّهار ويلفه، ولا يشير إلى معنى نزع النّهار من الليل، بل إن توظيف للرابط **dont** يوحيّ بإضافة النّهار إلى الليل وهو ما يصير لا معنى في عرف الدّراسات التّرجمية.

5 . 8 مستقر الشّمس:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس : 38]

ذكر البغويّ الأقوال التّي فُسرت بها الآيّة والتّي تدور حول معنى ثبات مسيرها زمنا ومكانا[75]، أيّ أن الشّمس في حركتها تتبع مسارات محددة في أوقات محددة، لا تختلف، وربما هذا ما تشير إليه آيّة سورة الرّحمن "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ" [الرّحمن : 5]. فالحسبان من الحساب على وزن فعلان الذيّ يوحيّ بالامتلاء، أيّ حسابا دقيقا، كما قال الطبريّ «بحسبان ، ومنازل لها يجريان ولا يعدوانها»[76]، وهذا التّفسير قال به الزمخشريّ وابن عطيّة أيضا[77]. وهذا ما تؤكده الحسابات التّي يؤسسها البشر على حركة الشّمس. وما يجلّيّ معنى مستقر هو وروده في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام : 67]، حيث فسر بالغايّة

والنّهاية، والغايّة تشمل الزمان والمكان[78]. وهذا المعنى تؤكده الآيّة ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [يس: 40]، التّي تدل صراحة على انضباط حركة كل منهما في فلك وفق حساب لا يتغير، فإذا اختل الحساب وقعت القيامة، قال البغويّ « هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته . وقيل : لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر ، لا تطلع الشّمس بالليل ولا يطلع القمر بالنّهار وله ضوء ، فإذا اجتمعا وأدرك كل واحد منهما صاحبه قامت القيامة . وقيل: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ أيّ : تجتمع معه في فلك واحد، ﴿ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ أيّ : لا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما فاصل . ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يجرون»[79] . فلنتأمل كيف صارت هذه المعانيّ بعد ترجمة بيرك لها:

▪Et que le soleil coure vers un sien reposoir, et ce n'est là que juste réglage du tout-puissant, du connaissant.[80]

ينبهنا قاموس روبير الذيّ اعتمد معانيه جاك بيرك، أن هذا الأخير قد اقترض من المعتقد الكنسيّ كلمة نأت كليا بالآيّة من مدلولها الذيّ يصف حركة الشّمس، فهذه الآيّة لا تقول أنّ الشّمس تجريّ إلى لوحة القرابين ولا إلى مذبح لها؛ فكلمة **reposoir** التّي حشرها بيرك هنا، قد تغالط القارئ فيظنها مشتقة من **reposer** فتعنيّ الرّاحة أو مكان الرّاحة، بل هيّ تلك الخشبة التّي يضع عليها الرّهبان قربانهم[81]، وقد يكون هذا القربان شيئا يذبح. هنا يثبت لنا بيرك سعة معرفته باللغة الفرنسية، فمرة ينهل من المستوى السّوقي، ومرة ينهل من المعتقد المسيحي، لكن ليته وظف موسوعيته تلك في نقل المعانيّ التّي يقولها القرآن، لا تلك التّي يختلقها فيفجأ بها القارئ ولو كان فرنسيا لكونها تنقل عن القرآن معنى كنسيا وخرافيا إذا نسب للشمس. أما إن كان يدعيّ استئناسه بالحديث[82] فتصبح ترجمته أسوأ قصدا، وحتى لو افترضنا أنّه يقصد الدّلالة الاشتقاقيّة للفعل **reposer** فلا يجديّ ذلك نفعا في تصور معنى سليم فضلا أن يكون مناسبا للمدلول القرآني.

خاتمة: اقتصر هذا البحث على تبين منهج بيرك في ترجمته للقرآن، بالتّركيز على ألفاظ قرآنيّة لها دلالات علمية، وقد تبين من خلال مناقشة آراء بيرك بخصوص ترجمة القرآن، وكذلك من خلال تحليل نماذج من نص التّرجمة الفرنسيّ جملة من النّتائج لعل أولاها بالذكر ما يلي:

تتأكد صعوبة ترجمة القرآن ولو تصدى لها من له وافر النّصيب من المعرفة باللغتين، فضلا عن امتلاك ناصيّة منهج البحث والتّمحيص.

لقد كان بيرك صادقا في وصفه ترجمة القرآن بالمشروع الذيّ يلزمه تكاتف جهود مختصين.

لقد ثبت للباحث، من خلال تحليل نماذج من ترجمة بيرك، أنّ هذا الأخير لم يتقيد بمنهج معين، فرغم زعمه اعتماد تفاسير عربيّة معينة، إلا أنه قد أتى ببعض المعانيّ في الفرنسيّة لم يقل بها أولئك المفسرون، بل حتى القاموس الفرنسيّ الذيّ اعتمده مرجعا لغويا ظهر أنه لا يؤيده في كثير من خياراته.

ثبت للباحث أن بيرك مستشرق ذو اطلاع واسع باللغة الفرنسية، وقد كان من الممكن أن يستفيد من ثروته اللغويّة في سبيل تحقيق ترجمة أكثر دقة، أو على الأقل أسلم لغويا، لكن ذلك لم يظهر في ترجمته رغم كونها مراجعة ونالها من النّقد ما لها.

لم يسلم بيرك من تأثره برواسب المعتقد النّصراني، فقد ظهر ذلك في بعض ترجماته، وهذا يؤكد مقولة تأثر المترجم بانتماءاته.

لم تكن مدونة البحث إلا نماذج يسيرة، ربما لا تسمح بتعميم الأحكام على مجموع التّرجمة، إلا أنها تبين مدى ضرورة مراجعة التّرجمات المنشورة، وعلى مستويات عدة، فإن كانت ألفاظ الإشارات العلميّة واضحة الدّلالة عربيا، وأتت ترجمة بيرك لها على نحو غير سوي، فكيف بترجمة آيات تتعلق مواضيعها بالعقائد مثلا، أو بالأحكام، أو ألفاظ تحتمل دلالات لها ما يسوغها. وفي ذلك فتح لمجال البحث والدّراسة، ودعوة لنقد جاد وموضوعيّ لترجمات القرآن المنشورة.

الهوامش :

(1) **جامعة العربي التبسي- تبسة، الجزائر،** h.moussaoui@univ-tebessa.dz

(2) ينظر: جاك بيرك: إعادة قراءة القرآن، ترجمة وائل غالي شكري، النديم للصحافة والنشر، القاهرة، 1996 ،ص 5-6.

(3) نفسه، ص 9.

(4) زينب عبدالعزيز: ترجمات القرآن إلى أين؟ وجهان لجاك بيرك، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 1، 1425هـ- 2005م، ص 7.

(5) ينظر: أحمد شاكر: عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير: مختصر تفسير القرآن العظيم، دار الوفاء، ط2، 1426هـ - 2005م، المنصورة، مصر، ج2، ص 770.

(6) Jaques BERQUE: LE QURAN ESSAI DE TRADUCTION, édition revue et corrigée, Albin Michel, Paris, France 1995, pp. 11-12. «on ne peut, en effet, attendre d'un seul homme l'ensemble de qualité qu'une telle entreprise requerrait de son responsable. A des connaissances philologiques sérieuses, à une information poussée tant sur l'exégèse que sur ses incidences vécues, devraient se joindre une certaine intuition spirituelle, le sens critique de l'histoire, la sensibilité littéraire et l'aptitude à faire passer dans la langue d'arrivé un peu de la vibration de l'original».

(7) BERQUE: op.cit, p. 12. «ma lecture, aussi bien, se voulait confrontation directe avec cette parole antique et toujours nouvelle»

(8) مساعد بن سلمان الطيار: التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي، الرياض، ط2، 1427هـ، ص 187.

(9) BERQUE: op.cit, pp. 12-13. «il est vrai que les commentaires se partagent entre tendances souvent rivales. A trop suivre leur concert fertile en désaccord, on risque de tomber soit dans l'exagération importante de différences, soit dans un éclectisme importune et niveleur. A ce péril, cependant, on pouvait chercher un correctif dans la volonté, la prétention sans doude, de tendre, par et malgré ces appuis, à un choix personnel»

(10) محمد بن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ - 2001م، ج1، ص 373.

(11) نفسه: ج1، ص 235

(12) مساعد بن سلمان الطيار: شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، دار ابن الجوزي ط2، 1428هـ، الدمام، السعودية، ص 35 و 71.

(13) محمد المالكي: دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره، جامع البيان عن تأويل آيالقرآن، مطبعة فضالة، المحمدية المغرب، 1996م، ص 93.

13BERQUE: op.cit, p.13. «je suis particulièrement redevable à mon regretté ami Régis Blachère, de qui j'ai pu apprécier encore, en cette occasion, la science grammaticale et la rigueur, sans toutefois partager son inclination positiviste».

(15) Berque: ibidem. «à la traduction de Si Hamza Boubakeur je dois aussi d'utiles confrontation avec un point de vue musulman étayé d'informations, à l'occidentale»

(16) Cf. Berque: op. cit. p. 797.

(17) Berque: op.cit. p. 15. «…cette tache qu'il a fallu recommencer tout au long trois ou quatre fois…»

(18) ibid.: p. 16.

(19) جاك بيرك: إعادة قراءة القرآن، ص 16.

(20) BERQUE: op.cit, p. 13.

(21) مساعد بن سلمان الطيار ، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط1، 1422ه، ص 38.

(22) نفسه: ص 39.

(23) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي: الموافقات، تحقيق، مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخُبر،السعودية، ط1، 1417هـ-1997م، ج1، ص 39.

(24) محمد بن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ - 2001م. ج 1، ص ص 87- 88.

(25) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، دار الفكر ، لبنان، 1416هـ- 1996م، ج6، ص 2298 وما بعدها.

(26) بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي :البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، مصر، ط3، 1404هـ- 1984م. ج2، ص ص 165-165.

(27) ابن عاشور، محمد الطاهر ، التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ، 1997 م، ج1، ص 18.

(28) الطبري: مصدر سابق: ج2، ص 464.

(29) نفسه: ج2، ص 465.

(30) BERQUE: op.cit, p.41. «Créateur intégral» nous paraît rendre les valeurs de la racine b.d.', qui ne comporte que trois emplois dans le Coran. Des nuances la font différer de f.t.r. et kh.l.q., d'occurrences plus fréquentes, et qui orientent le sens différemment: f.t.r. «créer à partir de rien» et kh.l.q. «créer à partir d'éléments déjà existants» (comme c'est le cas de la création de l'homme).

(31) Ibid. p. 153

(32) Ibid. p. 464.

(33) القرآن الكريم: الانعام:14؛ يوسف: 101؛ ‘براهيم: 10؛ فاطر:01؛ الزمر: 46؛ الشورى: 11.

(34) BERQUE: op.cit, p. 256

(35) Ibid.: p. 266.

(36) ibid. p.464; 499 et 520.

(37) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر – بيروت، ط1، /1414 هـ ، ج8، ص11.

(38) نفسه: ج7، ص350.

(39) محمود بن عمر بن محمد الزمخشري : الكشاف عن حقائق التأويل ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان الرياض، السعودية، ط1، 1417هـ - 1998مج5، ص 608.

(40) أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس: إعراب القرآن، تحقيق د.زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت ،1409هـ- 1988م، ج4، ص 235.

(41) الطبري: مصدر سابق، ج 21، ص482 .

(42) عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413هـ- 1993م، ج5، ص 171.

(43) محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية: التبيان في أيمان القرآن، عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1429 هـ، ص .424.

(44) BERQUE: op.cit, p. 576

(45) Ibid., p. 567. Nous traduisons au plus près de l'étymologie. Les interprétations parlent de vents; de nuages, d'anges… on penche plutôt pour la notation, en images jaculatoires, des mouvements de la nature, en ses violences réglées".

(46) Cf. Le nouveau Petit Robert (version électronique), la Maison Robert, Paris. 2004.: Vanner.

(47) ينظر: الطبري، مصدر سابق، ج 21، ص 468، وابن عطية، مصدر سابق، ج5، ص 172.

(48) ينظر: ، محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414هـ، ج10، ص 407.

(49) BERQUE: op.cit, p. 567.

(50) حمدو طماس: ديوان زهير بن أبي سلمى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ 2005م، ص 43.

(51) نفسه.

(52) يُنظر: مساعد بن سلمان الطيار: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص 51.

(53) الطبري: مصدر سابق: ج17، ص 335 .

(54) ابن عطية: مصدر سابق، ج4، ص 190.

(55) نخبة من العلماء: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1418هـ، المدينة، السعودية، ص355.

(56) أبو الحسين أحمد بن زكريا ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ، بيروت – لبنان1420،هـ - 1999م، مادة : زجى.
(57) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري : تهذيب اللغة ،تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي،،بيروت، 2001م، مادة ألف.
(58) مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى : القاموس المحيط، تحقيق، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 8، 1426 هـ - 2005 م، مادة ركم.
(59) الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين، تحقيق د مهدي المخزومي / د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.[د ت]، ج5، ص 198.
(60) نفسه،ج4، ص 140.
(61) BERQUE: op.cit, p. 377.
(62) الطبري: مصدر سابق، ج24، ص ص 12-13.
(63) الفراهيدي: مصدر سابق، ج1، ص 295.
(64) الطبري: مصدر سابق، ج24، ص ص 12-13.
(65) BERQUE: op.cit, p. 656.
(66) Ibidem.
(67) ينظر الطبري: مصدر سابق، ج23، ص ص 580-583.
(68) BERQUE: op.cit, p. 653.
(69) Ibid., p. 653. "v 1-4. Des anges? Des vents? Le mouvement de la révélation transmises par les prophètes? Cette suggestion nous parait dominer. Quant à la forme, les participes féminns pluriels sont, comme r. Blachère l'avait déjà remarqué, à valeur substantive. Ce sont des maçdar (noms d'actions) marquant l'intensité, comme dans d'autres incipit coraniques".
(70) ينظر: الفراهيدي، كتاب العين، ج4، ص198.
(71) الطبري: مصدر سابق، ج 19، ص 434.
(72) الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل، تحقيق محمد عبدالله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط4، 1417هـ- 1997م،ج6، ص86.
(73) BERQUE: op.cit, p. 473.
(74) Cf. le Petit Robert: dépiauter.
(75) البغوي: مصدر سابق، ج7، ص 17.
(76) الطبري: مصدر سابق، ج22، ص 171
(77) ينظر: الزمخشري : مصدر سابق، ج 5، ص 178، وابن عطية: مصدر سابق، ج4، ص 454.
(78) ينظر : محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر – بيروت، ط1، /1414 هـ،ج7، ص386.
(79) البغوي: مصدر سابق، ج7، ص ص 18-19.
(80) BERQUE: op.cit, p.. 473.
(81) Cf.: le Petit Robert: reposoir.
(82) روى البخاري عن عن أبي ذَرٍّ قال: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فلما غَرَبَتْ الشَّمْسُ قال يا أَبَا ذَرٍّ هل تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هذه قال قلت الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قال فَإِنَّهَا تَذْهَبُ تَسْتَأْذِنُ في السُّجُودِ فَيُؤْذَنُ لها وَكَأَنَّهَا قد قِيلَ لها ارْجِعِي من حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ من مَغْرِبِهَا ثُمَّ قَرَأَ ذلك مُسْتَقَرٌّ لها في قِرَاءَةِ عبد اللَّهِ". البخاري، الجامع المسند الصحيح، دار التأصيل، القاهرة، مصر، ط1433 ، 1هـ-2012.ج6، ص 2700.